TROUBADOURS
ET POETES HISPANO-MAURESQUES

ETIEMBLE

التروبادور وشعراء الأندلس

حينما تحدث دى بيللى Du Bellay عن شعر التروبادور قال : « ماأحقره ! دعنى من كل هذه التوابل التى تفسد علينا مذاق لغتنا ، والتى ليس وراءها نفع إلا أن تكون شاهداً على جهالتنا . » وهكذا أصدر حكمه على الشعر البروفانسى فى استهانة وجور نجدهما عند نقاد القرن السابع عشر نحو هذا الشعر . وبعد أمد طويل ، فى نهاية القرن التاسع عشر، رُدّ على أناشيد الجسْت chansons de geste وقصص المائدة المستديرة وشعر التروبادور اعتبارها فى صورة مضطربة مختلطة ، وذلك تحت تأثير عامل الخوف الشديد الذى دفع الطوائف المرشدة إلى الأسف على القرون الوسطى والترحم على أيامها الجميلة . فأصبح الشعر البروفانسى فجأة شعراً فرنسيا له حكمته وقيمته . وشرع العلماء الأجانب — تحت تأثير الدافع الوطنى قبل العلمى — يكشفون عن ماض حافل لهذا الشعر ، فيرجحون تارة أنه من أصل يونانى رومانى ، ويقطعون تارة بأنه من أصل سِلْتى . ومع ذلك فالمسرفون فى العصبية القومية لم يقبلوا الاعتراف بهذا النسب . والأمر عندهم أن شعر التروبادور بموضوعه وأسلوبه ظهر فجأة ظهور المعجزة دون مقدمات ، فكأنه زهرة بغير ساق ولا جذر . (وكان الألمان — الذين اهتموا لبرتراند دى بورن Bertrand de Born أو بير فيدال Peire Vidal — يريدون أن يثبتوا العنصر القوطى . وهذا للأسف أثر من آثار العصبية القومية) . وبالرغم من كل هذا فالمفكرون المتازون منذ نصف قرن يرفضون تلك الأحكام من أساسها . فأوجين باريت Eugène Baret وآخرون بعده يؤكدون أن التأثير العربى وحده هو الذى يستطيع أن يفسر لنا السر فى ظهور هذا النوع من الشعر ، وهم فى ذلك يتفقون مع رأى كثير من النقاد الايطاليين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة باربيرى Barberi الذى كتب بحوثاً عن ازدهار الشعر العربى عند الاسبان والبروفانسيين .

ولا يستطيع اليوم أى أوربى مثقف أن ينكر ما يقال من أنه فى الوقت الذى حمل فيه الغزو الجرمانى إلى الغرب الاضطراب والوحشية كان تأسيس الخلافة القرطبية هو الذى سمح لأوربا بأن تحيا فيها الثقافة مرة ثانية . وكان من اثار ذلك أن أصبح حوض البحر الأبيض مركزاً للعلوم الرياضية والطب والفلك والكيمياء والفلسفة . ولقد قال بحق ألكسندر كوريه Alexandre Koyrè : « إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه، ولم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليونانى كما شاع القول واستفاض . فلولا ابن سينا ولولا ابن رشد لكان ظهور القديس توما أمراً مستحيلا ، وفى اتهامه مرتين بمشايعته لتفكير أحد (الوثنيين) دليل على ذلك . وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيده من كتاب أقليدس لولا وجود العرب الذين جعلوها حتى القرن السادس عشر مرجعاً فى قرطبة يرحل إليه الراحلون ؟ ولم يكن هنالك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية ، كما أعلن ذلك روجر بيكون Roger Bacon . ولما كانت كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية موسومة بخاتم الاسلام وعلامته ، فيكون عجيباً جداً لذلك أن ينبثق الشعر البروفانسى فى أرض فرنسية فجأه وينبت من تلقاء نفسه .

لقد نشر الأستاذ روبرت بريفو Robert Briffault منذ عشرين عاماً مؤلفاً ضخما عن أصول العواطف والمؤسسات الانسانية . وهو اليوم يتحفنا بكتاب كبير مركز فيه البراهين على ما نميل إليه من أن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى . قال المؤلف : « قبل أن يترنم شاعر من شعراء التروبادور بأول أناشيده فى بروفانس بنحو قرن من الزمان كان أدباء الأندلس قد تحمسوا لنوع جديد من الشعر اعتبر ظهوره بينهم ثورة أدبية » . لقد مجدوا فيه جمال المحبوب كما تغنوا بجوره وقسوته وبذلة العاشق وكآبته . ومن ناحية أخرى هنالك فى قصور الوزراء والخلفاء ، كانت النساء الجميلات — وفيهن أنشدت أشعار — قد شغفن بجمع المخطوطات ، وأولين شعراءهن الحماية والرعاية ، وكن أيضاً ينظمن الشعر (هكذا كانت ولاّدة ابنة المستكفى ، وهكذا كانت عائشة بنت أحمد). أما عن الموضوعات التى أحدث فيها هذا الشعر تجديداً فهى أغانى الصباح L'aubade وأناشيد الربيع . وأما ما حدث من تجديد فى الشكل فهو أنه حول القصيدة القديمة الطويلة بأبياتها التقليدية إلى مقطوعات تتألف كل مقطوعة من أربعة

أجزاء ،يشترك الثلاثة الأول منها فى قافية متشابهة ، ويتخذ الجزء الرابع — وهو مايسمى بالسمط — قافية جديدة تتكرر فى آخر كل مقطوعة . ومضوا أبعد من هذا فأحدثوا تغييراً فى لغة الشعر لتتلاءم مع أنواعهم الجديدة . يشهد بذلك ديوان ابن قزمان الذى التزم اللغة العامية فيه، وتشهد بقية الآثار التى استخدمت فن الزجل .

وفى تلك العصور كانت الصلات الوثيقة قائمة بين الولايات الأسبانية (مسيحية وإسلامية) وبين ما نسميه بالعالم البروفانسى أى بروفانس وقطلونية و إمارة تولوز . وكان أمراء هذه الولاية الأخيرة يعيشون فى دائرة النفوذ الأسبانى أكثر من خضوعهم لملوك الفرنجة . ولم يكن هنالك تعصب دينى يحول بين أهل بروفانس وبين أهل قرطبة . وأكثر ملوك النصرانية إخلاصاً لدينهم كانوا لا يدّعون حين يحاربون الأمراء المسلمين إلا أنهم يريدون توحيد المُلكين تحت تاجهم ،أى الملك النصرانى والأمارة الاسلامية ، وهما ما كان يعبر عنهما وقتئذاك (بالملتين) . وكذلك كان الشأن فى حركة الاسترداد riconquista فالفرسان العرب كثيراً ما ساهموا فى تلك الحركة التى أظهرت فيما بعد على أنها النصر المبين للدين الحق على جموع الكافرين . وكان أهل بروفانس أقل من غيرهم عصبية للوطن والدين ،فكان أفرادهم فى القرن الثانى عشر يحترمون أهل قرطبة المعاصرين لهم ويتعاملون معهم .

وأول شاعر معروف من شعراء التروبادور هو جيوم صاحب مدينة بواتييه الذى ولد سنة ١٠٧١ فكان تبعاً لذلك معاصراً لابن قزمان . وكان جيوم هذا مشهوراً يتحدث عنه كل الناس . وكان فوق ذلك حليفاً لأمراء ليون ، وقد أمدهم بمعونته أحياناً . فهل يعقل ألا يتأثر رجل كهذا بأسبانيا المسلمة وهو الذى أوغل فيها حتى بلغ غرناطة وقرطبة ؟ وتأكيداً لذلك نرى أن نظام القوافى فى أغانى الصباح البروفانسية وهو ب ب ب ا — حححا — ا ا يشبه قوافى الزجل أو هو متأثر بها مقلد لها ، وكان نظام الزجل ا ا — ب ب ب ا — حححا [1] ونرى

---

(١) اختلاف حروف الهجاء يدل على اختلاف القوافى التى فى آخر الشطرات ، وعدد الحروف وترتيبها يدل على عدد القوافى وترتيبها . فحرف ال (ا) يشير إلى الأسماط التى تتكرر قافيتها فى المقطوعات وال (ب) وال (ح) إلى قسيم السمط وهو الذى يسميه ابن سناء الملك فى « دار الطراز » ، بالبيت ، والذى يحسن أن نسميه بالغصن اقتباسا عن ابن خلدون فى مقدمته وابن بسام فى الذخيرة . والسمط يسمى عند ابن سناء الملك بالقفل . (المترجم)

أيضاً موضوعات شعر التروبادور وقواعده هى نفس موضوعات الشعر العربى وقواعده : إنهم يتغنون بعذاب الحب و آلامه ، ويتغنون بمحاسن المرأة وما يثيره جسدها من فرح ولذة . لقد رفع شعراء التروبادور منزلة الحب فوق مواثيق الزواج وعقوده . و إن قيل إنهم بذلك هونوا من شأن الأمانة الزوجية واتهموا الغيرة على العرض بأنها جلافة ، أمكن أن يدافع عنهم بأن إخلاصهم للدين على حقيقته ، أو قل — وهو الأرجح — إن إخلاصهم لتعاليم الفروسية فى الحب التى سنها شعراء الأندلس هو الذى حملهم على هذا . إن الأخلاق فى تلك كانت على جانب من التحرر والتساهل ، شكت منه الكنيسة حين قالت : «إن أكيتانيا ليست إلا مباءة واسعة للاثم والفجور» . ومعنى هذا أن العفاف الذى أرادت المسيحية أن تجعله الفضيلة العليا لم يكن محل رعاية دقيقة من الناس . حقا أن التروبادور أرغموا شيئاً فشيئاً على التوفيق بين الموضوعات والأخلاق التى أورثها لهم العالم العربى ، وبين إلحاح يزداد صرامة من كنيسة متجهمة عابسة . ولكنهم عرفوا مع ذلك كيف يحتفظون حتى فى أغانيهم المهذبة ببعض الصفات الجسدية البريئة التى ترامت إليهم من خلف جبال البرانس .

وعلى الضد مما استطاع أن يكتبه عدد من النقاد العجبين لم يكن الشعر البروفانسى يتغنى بامرأة خيالية ، و لم يكن يجرى وراء الأشياء المقدسة . ولكنه كان يتغنى فى صراحة وفى غلظة أحياناً بلذة معانقة امرأة جميلة عارية تحيط صاحبها بذراعيها . واستطاع هذا الشعر ، استجابة لما فيه من إحساس جنسى ومن فجور أحياناً ، أن يعلن أن ليلة من ليالى الغرام تساوى فى قيمتها الجنة المفقودة . وفجأة تنعكس الأمور ، فبدلا من أن يمجد الشاعر عشيقته ويصف بياض صدرها أخذ يقدم المدائح « للعذراء » التى استقطرت ثديها العذب وقدمت لبنه الأبيض لراهب صغير كى يشفى من مرضه . فماذا حدث ؟

هذه هى القصة : كان من نتائج الاتصال بين العرب والبيئات البروفانسية أن ارتقى هذا القسم من فرنسا إلى مستوى ثقافى — حوالى سنة ١٢٠٠ — أصبحت به إمارة تولوز على رأس الممالك المتحضرة الغنية الشاعرة المزهرة . ولم يكن هذا يرضى أتباع ملك قشتالة (وهو دومنيك دى جزمان الملقب بكذاب قشتالة) . فأشار هؤلاء على البابا إينوسنت الثالث فأعلن الجهاد الصليبى ضد هذه الأراضى الفرنسية التى عرف الناس فيها كيف يحيون (لقد أعلن من قبل ترتوليان أن مملكة

السموات هى وطن الخصيان) . واستجابة لدعوة الأب المقدس (البابا) انقضّ أهل الشمال على وطن التروبادور . فكم كان صرعى الحديد والنار والعذاب ؟ إنهم عشرات الألوف ، ويحتمل أن يكونوا قد بلغوا مائة ألف . إن أبناء سان دومنيك أنجزوا ما بدأ به سيمون دى منتفورد . ومن سنة ١٢٠٩ إلى سنة ١٢٥٠ محوا كل آثار تلك الحضارة التى نضجت قبل الأوان ، والتى «كان يبدو أنها اختيرت لتقود أوربا » . فلما تمت إبادتها انتقل إلى إيطاليا شرف القيام بحركة النهضة بدلا من تولوز التى كان ينبغى أن تقوم بها . وصادر أساقفة الدومنيك أناشيد الباطل أو أشعار التروبادور ، وألقوا إلى هؤلاء الشعراء الأمر بأن ينظموا التسابيح الدينية بدلا من تلك التى قدمت طعمة للنيران . فمضى ذلك الشعر الغنائى الذى أنتجته بروفانس ، والذى تفتحت فيه عبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الفرنسيين وحل محله بغير حق شعر تعبدى ولد فى أحضان الخوف . وهو الشعر الذى نريد من صاحبنا جوستاف كوهين أن يعتقد بأنه قد استنزف دماء القرون الوسطى[1] وأرهقها .

هذا هو كتاب الأستاذ بريفو كما يبدو لى . وتستطيع أن تحذر ما فيه من ثروة وغنى . ويضيف المؤلف إلى ذلك أن هذا الاقتران النادر بين ثقافتين ينبغى أن نرجع الفضل فيه إلى ما كان لدى الأمراء الأمويين من حرية وشك دينى ، وما كان عليه الخلفاء العباسيون الأوَل من ميل يقوى أو يضعف إلى مذهب المعتزلة . وفى الحق أن بروفانس أيضاً قد أصيبت بهذه المذاهب المكروهة ، وذلك قبل سنة ١٢٠٩ وهى السنة التى أعلن فيها الجهاد الصليبى ضد طائفة ألبيجوا **Albigeois** وضد التروبادور أهل السوء والضلال . وبفضل العقل ، الذى يعرف كيف يستفيد مما هو أجنبى ، استطاع أهل بروفانس أن يفهموا العرب وأن ينتجوا شعر التروبادور . فهل نستطيع ، مسترشدين بهذا الماضى المجيد ، أن نتآخى عقولا وأن نتعاون لنهتف يوماً ما على شواطئ بحرنا الأبيض ، الذى هو ربيب الاسلام والغرب ، بشعر جديد يتجلى فيه فن جديد من فنون الحياة !

نقلها عن الفرنسية عبد العزيز محمد الأهوانى　　　　اتيامبل

---

(١) انظر — والأولى ألا تنظر — كتاب جوستاف كوهين : « الازدهار الكبير للقرون الوسطى » Gustave Cohen, *La grande clarté du Moyen-Age.*